عبيطة الشارع

قصة بقلم اسماء حليم

كنا منذ سنوات مضت نسكن في حي « معروف » بالقاهرة في احد شوارعه الصغيرة. وحي «معروف» يختلف عن باقي احياء القاهرة بانه حي فقير وسط القاهرة الانيقة ، فهو يقع بين شارعي سليمان باشا والملكة وهو قريب جداً من ميادين توفيق وسليمان باشا والتحرير ، ولو سرت خطوات قليلة لوجدت نفسك عند كوبري قصر النيل .

وكان شارعنا — او بالاصح حارتنا — منعزلاً عن باقي شوارع الحي كأنه قرية قائمة بذاتها ، وفعلاً كان لسكانه أخلاق اهل القرى فهم يعرفون بعضهم بل كل شيء صغير او كبير عن بعضهم . وفيهم ايضاً اخلاق اهل المدن فهم لا يتزاورون ولا يتحادثون ، كل منهم منصرف الى شأنه ، وعندما تتلاقى نظراتهم من النوافذ يتراجعون عنها خشية ان يضطروا الى تبادل التحية .

ولم يكن اهل شارعنا هم سكانه فقط ، بل كان من بينهم عدد من الشخصيات التي تظهر فيه نهاراً وتختفي ليلاً مثل بائع الفول المدمس الذي يقف بعربته الصغيرة وقدرتيها عند احد مدخلي الشارع ينادي على « اللوز اللذيذ » ومثل بائع لحم الرأس الذي يظهر في شارعنا ظهراً واحياناً يلتقي ببائع المدمس ان بكر في الحضور او تأخر بائع الفول في الانصراف، فيقف الاثنان متجاورين ، بائع الفول يسند قدمه الى يد العربة وبائع لحم الرأس امامه صينيته التقليدية على حاملها المصنوع من الجريد وهو يصرخ من وقت لآخر في صوت غريب يطلقه من حلقه « يا جابر ، كبد » .

ثم هناك ام توفيق أو « العجوزة » كما اسماها اهل الشارع التي تجلس على الرصيف عند المدخل الآخر للشارع ، وامامها قفص من الحديد تضمه مقلوباً وتغطيه بصحيفة قذرة رصت عليها قطعاً من الحلوى الرديئة ، وفي يدها مذبة تدفع بها الذباب عن بضاعتها حيناً وتسهو عنه اكثر الاحيان. ومحمد بائع الصحف وهو شاب رفيق البنية يسعل طيلة فصل الشتاء ويلف عنقه بكوفية من الصوف يوزع جرائده على المنازل من شارعنا والشوارع المجاورة مرتين في اليوم، ثم يأخذ مكانه الى جوار بائع الفول وجابر. ومثل بائع اليانصيب حسنين ذي الوجه القبيح والعينين المرمدتين والشعر الطويل القذر .

وكان من اهل شارعنا ايضاً عدد من الاطفال، من الصبية والبنات الذين يقضون نهارهم يجوبون الشوارع الانيقة يجمعون اعقاب السجائر ويبيعون اوراق اليانصيب ويستجدون المارة وينشلونهم اذا اتيحت لهم الفرصة ، يطاردهم رجال الشرطة ويهربون منهم، وبعد يومهم الحافل يؤوبون الى شارعنا بعد انتصاف الليل يتخذون من ارصفته اسرة فينامون في اشكال دائرية في احضان بعضهم .

هذا الشارع الصغير المحدد المعالم والرواد، لم يكن يسمح ان يأتيه غريب من غير ان يلفت اليه انظار اهله . ورغم ذلك فان احداً لم ينتبه اليها عندما جاءت الى شارعنا لاول مرة لم يرها احد تدخله من يمينه او من يساره، بل رأيناها تقف قرب مدخله من ناحية شارع الملكة مستندة بظهرها الى جدار بيت وهي تنظر امامها في دهشة . كانت طفلة صغيرة لم تتعد عامها السابع ، سوداء الشعر والعينين ممتلئة الجسم سمراء البشرة ، تلبس جلباباً يصل الى كعبيها منقوشاً بورود صغيرة ملونة. تقف ساكنة صامتة لا تتحرك ولا تتكلم ، ظنها اهل الشارع ضالة فحاولوا ان يعرفوا منها اسمها واسم اهلها ومن جاء بها الى شارعنا ، ولكنها قابلت اسئلتهم بصمت تام ، يتدلى لسانها من فمها المفتوح قليلاً وتنظر اليهم في دهشة كأنهم لغز يحيرها. وعرف اهل الشارع ان الصغيرة المسكينة بلهاء ومنذ ذلك الوقت اسموها «العبيطة.»

وكانما كان مجيء الطفلة سبباً في ان يخرج اهل الشارع عن تقليدهم فصاروا يجتمعون ويتداولون في شأنها. وكثرت اقتراحاتهم بما يجب ان يتخذ من خطوات حيال هذه الصامتة ، فتزعم « جابر » الرأي القائل بتسليمها الى مركز بوليس « كوتسكا » اقرب مركز بوليس الى شارعنا وتزعم شيخ يقطن في الدور الارضي من البيت الذي اختارته الطفلة لتقف في ظل جداره الرأي القائل بتسليمها الى ملجأ ليعنى بها. وتزعمت «العجوزة» بائعة الحلوى ذات الذباب رأياً انفردت به وهو ان تتقدم احدى الاسر القاطنة في الشارع فتتبنى « العبيطة ». وبين الاقتراحات المتباينة والمداولات الكثيرة لم يتحقق شيء ، فلم تسلم للبوليس ولا الملجأ ولم يتبنها احد. بل تبناها الشارع ، تقضي الصيف على الرصيف الايمن في الظل ، والشتاء على الرصيف الايسر في دفء الشمس ، وتنام في الليل على عتبة الكهل بالقرب من جامعي اعقاب السجائر وبائعي اليانصيب .

وتولى بائع الفول امر افطارها ، فكان يعطيها في كل صباح نصف رغيف به كمية من الفول ، ولا ينسى ابداً ان يضيف اليه بعض الملح والزيت، كما تولى «جابر» امر غذائها: رغيف فيه بعض لحم الرأس . اما عشاؤها فلم يتوله احد فصارت تبيت كل ليلة بدون عشاء. وكان بائع الفول و«جابر» يصرحان مراراً بان «العبيطة» « وشها يجلب الخير » وان مكاسبها قد زادت منذ جاءت الى الشارع ، ولعله وهم لا يعلمون — كان اقبال الشتاء وما صحبه من برد زاد من شهية سكان الشارع الى «المدمس» ولحم الرأس .

واقبل ديسمبر وتبعه يناير واشتدت وطأة البرد ، فكان بائع الفول و« جابر » وبائع الجرائد يسرعون بالعودة الى بيوتهم بعد الظهر. واشتد التصاق جامعي الاعقاب وبائعي اليانصيب ببعضهم اثناء نومهم .

اما العبيطة فلم يبد عليها انها تشعر بتغير الطقس ، فاستمرت تنظر امامها الى قطع الورق يدور بها ريح الشتاء على ارض الشارع وفي عينيها تلك النظرة المندهشة الحائرة ، ترى ما الذي كان يدهشها ويحيرها هكذا ؟

ولكن ان لم تكن هي تشعر بالبرد ، فجسمها يشعر به ، فترى مسام جلدها والشعر الرقيق الذي يكسو ساقيها وذراعيها نافراً وفكها السفلي المدلى ابداً يرتجف بشدة .

ولما كاد الشتاء ان ينصرم تذكرتها اسرة من القاطنات في الشارع فتبرعت لها بجلباب وجاكتة من الصوف ؛ ومنذ ذلك الوقت اصبح هذا هذا الامر تقليداً وواجباً تتناوب اسر الشارع القيام به .

***

ومر عام وثان وثالث و « العبيطة » تنمو وتترعرع في احضان الشارع يتبادلها رصيفاه . وبلغت الطفلة العاشرة . وحاولت بعض نساء الشارع

استغلالها في الاعمال المنزلية ولكنها لم تكن تفقه شيئاً . كانت تأكل وتنتقل الى الظل في الصيف والى دفء الشمس في الشتاء ، وتنام بالليل وتصحو في الصباح بالغريزة كما يفعل القط والكلب .

وجاوزت الطفلة عامها العاشر والحادي عشر وبدأت تظهر عليها علامات الانوثة فبرز نهداها واخذت استدارتها تتضح يوماً عن يوم ، وامتلأ ساقاها وردفاها ونحل خصرها وبرزت اطرافها من فتحات جلبابها كانما قد انكمش فجأة فلم يعد يناسب حجمها .

ويظهر ان احداً في الشارع لم ينتبه الى ان الطفلة قد اصبحت فتاة ، حتى حدث يوماً ان مر بها شابان غريبان عنا فنظر اليها احدهما واطلق من شفتيه صفيراً طويلاً ، ووجه اليها الثاني كلمة غزل مكشوف . وسمعت « العجوزة » كل ذلك فانبرت للغريبين فكالت لهما من السب اشكالاً والوانا ثم قذفتهما بحجر ؛ واقبل بائع الفول و « جابر » فاسرع الغريبان بالانصراف .

ورأت « العجوزة » ان تأخذ الفتاة تحت حمايتها فحاولت ان تجعلها تغير مكانها وتقف بجوارها ولكن « العبيطة » رفضت فجذبتها العجوز من يدها وتشبثت بها حتى جرجرتها الى جوار قفصها « والعبيطة » تقاوم ، فما ان خلت العجوز يدها حتى عادت الى مكانها الذي احتلته سنوات .

وغضبت « العجوزة » فاخذت تحادث نفسها ساخطة على الفتاة البلهاء التي لا تدري مصلحتها ولا ما يضرها وما ينفعها .. ثم خضعت العجوز فغيرت هي مكانها ونقلت قفصها الى جوار الفتاة مكررة انها تضحي عن طيب خاطر من اجل المسكينة .

وانقلبت «العجوز» الى واعظة وشغلتها مهمتها الجديدة عن الذباب الذي حط على حلواها السامة فغطاها بطبقة سوداء منه ، فكانت كلماتها المضخمة تتدفق من لسانها الذي يجول ويصول بين فكين خلوا من الاسنان .

وطفقت تحذر الفتاة من الدنيا الخبيثة والرجال الاشرار ، وتشرح لها كيف يفترسون النساء الضعيفات خاصة أمثالها اللاتي لا حامي لهن . ثم تعود فتستشهد برب السماء وملائكته بانها قد « عملت ما عليها وخلصت ضميرها . »

ولكن الفتاة لم يبد عليها انها قد فقهت كلمة مما قالته لها « العجوزة » فاستمرت تنظر امامها في دهشتها الخالدة . ويئست العجوز فكفت عن نصحها ووعظها الضائع ، وهزت رأسها في اسى وناولتها قطعة من الحلوى وهي تقول : « خذي يا ابنتي كلي وربنا يلطف بك . »

واخذت الفتاة الحلوى واكلتها ، هذا فقط كان ما تفقهه .

***

واقبل شتاء جديد يصحبه البرد الذي يدفع الحمرة الى وجنات السمراء والرعشة الى اطراف البائسين ، وفتاتنا العبيطة تنمو كأن نموها لن يقف عند حد ، ثم بدأت تسمن وتسمن فكان اهل الشارع يمزحون مع بائع الفول و« جابر » بانهما « يعلفان » العبيطة علفاً جيداً ، فتتصاعد امارات الطيبة الى وجهيهما وهما يستغفران الله ويكرران بانهما لا يبغيان الا وجه الله وان ما يعطيانه لتلك المسكينة زكاة عن صحتهما واولادهما .

ثم ...

لاحظ اهل الشارع ان بطن الفتاة هو الذي ينمو ويسمن فكانوا ينظرون اليها في تساؤل وشك ... هل حقيقي ما نرى ؟ هل وقعت الواقعة ؟ ... لا ... نعم ... لا ...

الفن العربي المعاصر

الرسم والنحت والتصوير والموسيقى الخ ...

دراسات ضافية عنها في عدد « الفنون » الممتاز

ثم ...

تأكدت الحقيقة ولم يعد هناك مجال للشك ، ان الفتاة قد حملت .

وانفجر الشارع كأنه خلية اضطرب امرها ، فكثر اللغط والتجمعات وملأ السخط النفوس . وكان على رأس الساخطين بائعا الفول ولحم الرأس . ومن فورة سخطه اندفع بائع الفول الى الفتاه وهو يصرخ فيها :

– يا بنت الكلب ... يا تربية الدوارع ... هل كنا نطعمك لتروحي تجيبلي في الحرام ... حار ونار في جثتك كل الفول الذي اكلته .

ثم امسك بكتفها يهزها في عنف ويقول :

– من يا بنت الذي فعل بك كذا ؟ من هو وانا اكسر رقبته ؟

ولكنها لم تجبه بكلمة وكيف يمكنها وهي لم تتكلم في حياتها ابداً ، بل نظرت اليه بعينيها اللتين ليس فيهما الا دهشة ما وراءها الا دهشة .

وثار غضب بائع الفول فصرخ فيها :

– قولي ، انطقي .

وصفعها على وجهها في قوة .

فارتعش جسد الفتاة واضطربت النظرة في عينيها المركزتين على وجهه ، وتصاعد الدمع الى عينيها ثم تصاعد على خديها نقطة بعد نقطة ... ولكن لم يبد عليها انها تدرك انها تبكي .

وتراجع بائع الفول أمام دموع البلهاء وقد تقلصت يده التي صفعتها وانقلب غضبه ضد نفسه .

واقبلت « العجوز » تهرول في جلبابها الماحل الناحل وهي تطلق من فكيها الاهتمين كلمات غير مفهومة ، ولما وصلت الى الفتاة جذبتها خلفها وواجهت اهل الشارع وهي تصرخ :

– إياكم احدكم يمد يده عليها .. روحوا تشطروا على ابن الكلب .. النذل .

ثم رفعت عينيها الى بيوت الشارع كأنها تتهم شخصاً فيها .

– ابن الكلب .. الجبان .. النذل الكافر الذي لا يخاف الله .

ورنت كلماتها بين الواقفين فتراجعوا ورنت كلماتها في اذنيها فبرقت عيناها وقد خيل اليها انها قائمة في برلمان تدافع عن حق الملايين من «الغلابة» امثالها ، او انها في ميدان قتال تدافع عن حياتها التي ضاعت وكيانها الذي لم يكن ابداً .

جالت ببصرها بين المتجمعين في الشارع والمطلين من النوافذ وقد شعرت بانها في اللحظات اللامعة في حياتها فصرخت فيهم :

– اربع سنين في الشارع تتلطم من رصيف لرصيف وتريدون اليوم ان تحاسبوها .. روحوا حاسبوا انفسكم ، حاسبوا ضميركم إن كان عندكم ضمير إسلام ولا انسانية ...

ثم تجهم وجهها ولمحي تخاطب بائع الفول :

– تسألها من فعل هذا ... هل تظنه غريباً ؟ انه واحد منكم ... واحد

من الشارع .

ووقعت كلماتها على المتجمعين وقع السياط . وهرولت « العجوزة » في نشاط غريب الى قفصها ثم هرولت عائدة وهي تمد يدها بقطعة حلوى للفتاة وقالت لها :

– خذي يا بنت كلي ... الله يلعن اولاد الحرام وقلوبهم الجاحدة .

واستغرقت الفتاة في قطعة الحلوى ، وانفض الناس عنها ، وفي قرارة نفوسهم ضمير يتلوى الماً فقد عجزوا كلهم عن حماية الصغيرة الضعيفة التي لجأت الى حماهم في شارعهم .

ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، فقد وقع ذكور الشارع كلهم تحت طائلة الاتهام ..

واصبح اهل الشارع وامسوا فريسة حب الاستطلاع يطاردهم السؤال الذي لم يجدوا له جواباً .. من هو ؟

وكثرت الاتهامات ولكنها بقيت طي الصدور ، واختلفت وفقاً لشخصية المتهمين .

وكان من بين سكان الشارع عدد من طلبة المدارس الثانوية والجامعة ، اجمعوا على اتهام جامعي اعقاب السجائر وبائعي اليانصيب الذين يأوون الى شارعنا بعد انتصاف الليل . وفي ليلة ترقبوهم حين عودتهم فأمسكوا بهم كلهم ثم عزلوا البنات عن الاولاد ، وضربوا الاولاد « علقة » ساخنة جعلتهم يعوون كالكلاب ثم طردوهم جميعاً من الشارع . ومنذ ذلك الوقت لم يعد شارعنا فندقاً لمشردي شارعي سليمان باشا والملكة .

اما بائع الفول و« جابر » فقد اتهما الطلبة وكانا فيما بينهما يتحادثان عن « الافندية العسرة وملامة المدارس » .

وانفردت « العجوزة » باتهام الكهل الذي يقيم بمفرده في الدور الارضي من البيت الذي تقف « العبيطة » بجواره واستطاعت ان تمنطق اتهامها له حتى اقتنعت به وكثيراً ما كانت تتمتم لنفسها :

– شايب وعايب .. صوم وصلاة .. ها .. روح الهي تنفضح في جهنم

وهدأت الفورة التي احدثها الاكتشاف الرهيب الذي هز شارعنا ، وعادت المياه الى مجاريها ، وعاد بائع الفول وجابر يقدمان للعبيطة وجبتي الافطار والغداء .. ولكن بقي السؤال الذي لم يجد له احد جواباً يجول في اعماقها الخفية . وافصحت « العجوزة » عن ذلك حين قالت يوماً :

– الشبه سوف يفضحه ونعرف من هو ..

وحلت ساعة الوضع والعبيطة لا تدري ما بها ولكن في جسمها آلاماً تجعل جبينها ينضح بالعرق الغزير وادركت العجوزة ما بها فصرخت من اولاد الحلال ان يطلبوا عربة الاسعاف .

وجاءت العربة فحملت الفتاة الى القصر العيني حيث بقيت اسبوعاً ثم عادت الى شارعنا ثانية وهي تحمل على ذراعها صرصوراً صغيراً يمكن ان تحتويه راحتا اليدين .

وطاف بها اهل الشارع يتطلعون في وجه الوليد ولكنه لم يكن يشبه احداً بل كان بوجهه المغضن اشبه « بالعجوزة » .

وضحك شارعنا للنكتة الطريفة وصاروا فيما بينهم يتضاحكون ويتمازحون

– شفتم يا عمى . الشعلبة العجوزة .

وغضبت « العجوزة » ان تكون هي موضع تنكيت اهل الشارع فقابلتهم بالسب المقذع ، ثم جرفها تيار الضحك فضحكت هي الاخرى ، وكأنما ارادت ان تتحدى الجميع فاستأجرت حجرة في الشارع لها وللعبيطة .

واعتاد اهل الشارع رؤية « العبيطة » تجلس على عتبة حجرتها ترضع وليدها فكانوا يتعجبون من قوة غريزة الامومة .

– سبحان الله يا اخي حتى العبيطة ! وتحركت عواطف الناس نحو الوليد الضعيف وهم يرونه يرضع ثدي امه وينمو تدريجياً وجسده الناحل يمتلىء لحماً شيئاً فشيئاً فكانوا يرسلون له خليع اطفالهم من الملابس القديمة وزجاجات اللبن وقطع السكر ، وصارت الامهات تتنافس في ابداء عطفهن على « ابن العبيطة » .

وفي يوم جاء شارعنا موظف من مكتب الصحة يسأله عن « ام محمد » ليسلمها شهادة ميلاد ابنها محمد عبدالله . وتعجب اهل شارعنا من تكون ام محمد هذه ومن يكون محمد عبدالله هذا ، حتى افهمهم الموظف انه الطفل مجهول الاب الذي ولد في القصر العيني منذ شهور .. آه ابن العبيطة .

وضحك الناس لطرافة النكتة .. هذه البلهاء اسمها ام محمد ، وابنها له شهادة رسمية مسجلة في دواوين الدولة بان اسمه محمد عبد الله .. ها .. ها

وبين هذه القهقهات وخزتهم ضمائرهم ، كيف حرموها طيلة هذه السنين الطويلة الحق البديهي لكل مواطن في ان يكون له اسم يسمى به ، وكيف يريدون ان يفرضوا هذا الحرمان على وليدها الصغير ..؟

اما « ام محمد » فقد رفضت ان تمد يدها لتأخذ شهادة ميلاد ابنها فوضعها الموظف في يد الوليد الذي اطبق قبضته عليها وصار يهزها وهو يصدر من فمه أصواتاً صغيرة :

ما .. غا .. ما

وعمت الفرحة الشارع واقبل الناس على البلهاء يهنئونها .

– يا ام محمد ابنك يتكلم

اما هي فلم تفقه من كلامهم شيئاً واستمرت تنظر اليهم بعينيها المندهشتين ابداً .

ولكنها رغم ذلك اصبحت منذ ذلك الوقت « ام محمد » .

اسما حليم

صدر حديثاً

العيون الظماء للنور

ديوان شعر قومي رائع

للشاعر

يوسف الخطيب

يطلب من مكتبة علي النظامي بدمشق